حرب لبنان 2006 ومستقبل الفكر العسكري : تحديات أمام الجيش والسياسة الدفاعية

تحليل بقلم ستيفن بيدل، جيفري أ. فريدمان
معهد الدراسات الإستراتيجية؛ أيلول 2008

موجز

إن مستقبل الفاعلين العسكريين غير الحكوميين هو قضية مركزية بالنسبة للإستراتيجية والتخطيط الدفاعي الأميركي. إذ يُعتقد بشكل واسع بأن هكذا مقاتلين سيكونوا، وبشكل متزايد، أعداء متفشين بالنسبة للجيش الأميركي، ويؤيد العديد الآن تغييراً كاسحاً في الوضع العسكري الأميركي للإستعداد لذلك الأمر – بدأ النقاش حول الأجندة المرتبطة بخصوص " تقنية منخفضة" أو التحول الى حرب لا نظامية يصبح، وبسرعة، إحدى القضايا المركزية بالنسبة للإستراتيجية وسياسة الدفاع الأميركية. وكمثال أخير بارز على فاعل غير حكومي يحارب دولة متغرِّبة، تقدم حملة حزب الله لعام 2006 نافذة للدخول الى نوع حرب يعتبرمركزياً، أكثر فأكثر، بالنسبة لجدل الدفاع الدائر في الولايات المتحدة. إذ أصبحت تعقيدات القضية بالنسبة للسياسة الأميركية مثيرة للجدل بشدة.

يرى البعض حزب الله كمنظمة إرهابية بجوهرها متستخدمة نسخة عصر معلومات للأساليب العسكرية اللامتماثلة المعتبرة، تاريخياً، نموذجية للفاعلين غير الحكوميين. هذه الرؤية عن حزب الله كقوة عصابات يستخدم عصر معلومات تعزز القضية المتعلقة بعملية إعادة تصميم كبرى للجيش الأميركي لإعادة موضعته لحرب لا نظامية. أما مؤيدو هذه المسألة فيختلفون في التفاصيل، إلا أن معظمهم يؤيدون توسيع الجيش وفرق المارينز؛ إعادة تجهيز هذه القوة البرية الأكبر حجماً في الجيش بأسلحة وآليات أخف وزناً؛ إعادة هيكلتها للتقليل من التشديد على سلاح المدفعية والمدرعات لصالح المشاة الخفيفون، الشؤون المدنية، الشرطة العسكرية، المستشار العسكري وقدرة القوات الخاصة؛ وإعادة هندسة التدريب، العقيدة، ثقافة الخدمة، التجنيد، وأنظمة الدعاية للتشديد على مهارات وطرق حرب لا نظامية منخفضة الكثافة والحدة بدلاً من حرب تقليدية.إن التحديات الكبرى الموجودة في عملية الوكالات الحكومية ستكون ضرورية لإحلال نظام رشيق حذق ومندمج كفاية مكان نظام صنع القرار البطئ والمجزئ لينافس، بفعالية، معادين سريعو الحركة، أذكياء سياسياً وداهية إعلامياً في إبراز النتائج لحرب كهذه بشكل مقنع للمشاهدين في الخارج. وإذا كان الأمر كذلك، فإن التغييرات الضرورية في برنامج الدفاع ستكون مكلفة وباهظة للغاية. إذ سيدفع كثيرون الثمن لذلك عن طريق تخفيض أو التخلي عن برامج تحديث سلاحي الجو والبحر ذات التقنية العالية؛ تخفيض حجم سلاح الجو وسلاح البحرية في المحيطات؛ تخفيض تدريب القوات البرية والجهوزية لقتال تقليدي. أما النتيجة فستكون جيشاً أميركياً ومؤسسة دفاع مختلفيْن جداً – بدءاً من الحجم وصولاً الى الهيكلية، التجهيزات، الأشخاص، والعقيدة.

في كل الأحوال، يرى آخرون حملة 2006 لحزب الله بمثابة إنحراف رئيس عن الأساليب اللا متماثلة للإرهابيين أو لرجال العصابات التقليديين وتحوُّل نحو الأساليب العسكرية التقليدية المرتبطة طبيعياً بفاعلين حكوميين. وما هو جديد في الصدد هو مدى" إختلاف" حملة 2006 عن حرب إرهاب أو عصابات – عصر معلومات أم لا – والى أي حد كان القتال يشبه حرباً تقليدية وحرب دولة. هذه النظرة لحزب الله كجيش تقليدي تضعف قضية التحول الى حرب لا نظامية. إذ أنها تتضمن، بدلاً من ذلك، الفكرة القائلة بأن جيشاً ذي هيكلية تقليدية هو، في الواقع، مناسب أكثر لمستقبل من المعادين ليس لهم صفة الدولة وأفضل من زعم المؤيدين لتحول منخفض التقنية. فحيثما بالإمكان تحسين القدرات لقتال منخفض الحدة

من دون زعزعة الأداء التقليدي فإن هذا الأمر سيكون أمراً حكيماً دوماً، إلا أن كثيرين في هذا المعسكر يرون وجود مقايضات حادة بين القوات والتدريب الضرورين لحرب لا نظامية المناقض لحرب تقليدية؛ وإذا كان الأمر كذلك، عندها سيكون التحول الجذري عبارة عن نصيحة سيئة ومضرة وبأن هيكليات القوة التقليدية، العقائد، والتدريب مسار أفضل بالنسبة للمستقبل.

يحتج المؤلفون في هذه المقالة بالقول بأن كلا التفسيرين لهاتين المدرستين لا ينسجمان تماماً مع الإدارة الفعلية لحزب الله لحملة 2006، إلا أن التفسير الأخير أكثر قرباً من الأول. فحزب الله إستخدم في العام 2006 أساليب مختلفة جداً عن تلك الشائعة المرتبطة بحرب "العصابات"، " الإرهاب" أو "اللا النظامية" بجوانب هامة: لقد بذل الكثير من المجهود والإهتمام للإمساك بالأرض؛ سعى بشكل رئيس الى الإخفاء بواسطة الرسم الدقيق للأماكن بدلاً من أن يتم ذلك من خلال الإختلاط المدني؛ كانت قواته مركزة جداً؛ ويبدو بأنه عبَّر عن مسرح حرب مختلف ومتميز بهدف إستخدام مواقع إطلاق الصواريخ الدفاعية في حملة قصف إستراتيجية ضد المراكز الإسرائيلية الآهلة بالسكان.

إلا أن حزب الله لم يقترب من حد تقليدي صرف: فدفاعه البري كان طيِّعاً جداً؛ لقد إعتمد، وبشكل واسع، على إطلاق النيران المرهق وعلى حقول ألغام مُسيَّبة؛ شدد كثيراً على القدرة على الإرغام؛ وقد يكون رتب ونظم قواته بشكل كبير جداً وفقاً للتوجه السياسي للسكان، وكلها خصال شائعة ومرتبطة بقوات "غير نظامية" أو قوات "عصابات".

وبذلك، تكون أساليب حزب الله واقعة في مكان ما بين مفاهيم حرب العصابات الشائعة وبين الحرب التقليدية – إلا أن معظم الفاعلين العسكريين هم كذلك، سواء كانوا دولة أم لا. فقلة من الجيوش الحقيقية سبق وأن تطابقت شكلاً ومضموناً، تماماً، مع الحد الصارم لحرب " تقليدية" أو حرب " عصابات". فالتوجه المألوف لرؤية الأساليب التقليدية والعصاباتية على أنها إنقسام حاد بين رأيين متناقضين وربط الرأي الأول بفاعلين غير حكوميين والأخير بالدول هو أمر خاطئ وكان كذلك لمدة قرن من الزمن على الأقل. في الواقع، هناك عناصر عميقة ممتدة لأساليب حرب العصابات في السلوك العسكري لجميع جيوش الدول، تقريباً، في حرب تقليدية، بدءاً من التكتيكات وصولاً الى الإستراتيجية. ولطالما إستخدمت معظم منظمات العصابات غير الحكومية تكتيكات و إستراتيجيات مال معظم المراقبين الى ربطها بسلوك جيش الدولة. في الحقيقة، هناك سلسلة ممتدة متوالية من الأساليب بين طرفي قطب خط ماجينو و فييت كونغ، ومعظم قضايا عالم الواقع كانت دوماً تقع في مكان ما بينهما. وقد وقعت حملة 2006، أيضاً في مكان ما بينهما. في كل الأحوال، إن عملية وضعها ضمن هذه السلسلة الممتدة هو أبعد من حد مقياس "فييت كونغ" مما يتوقعه عدد من مؤيدي التحول الى تقنية منخفضة، بكثير، لأجل فاعل غير حكومي - كما أن الإنحراف الأكبر، في الواقع، بين أساليب حزب الله وتلك التي لجيوش غربية حديثة قد تكون، بالفعل، كفاءة التنفيذ المشوبة بالعيوب لحزب الله بدلاً من العقيدة التي كان يحاول تنفيذها.

لقد قام حزب الله ببعض الأشياء بشكل جيد، كإستخدامه التغطية والإخفاء، تحضيره لمواقع القتال، عرضه الناري ودقة المورتر في إصابة الهدف، وتنسيقه للدعم الناري المباشر. لكنه قصَّر أيضاً كثيراً بالمعايير الغربية المعاصرة في السيطرة على المناورات الواسعة النطاق، دمج الحركة والدعم الناري غير المباشر، توحيد أذرع القتال المتعددة، التفاعل بمرونة مع الظروف المتغيرة، ودقة الأسلحة الصغيرة الحجم في إصابة الهدف. ويبدو حزب الله بأنه قد "حاول" العمل بنظام تكتيكات تقليدي لافت وسعى الى مسرح فن عمليات حربية، لكن هناك فرق بين المحاولة والإنجاز، وفي العام 2006 على الأقل، تجاوز إمتداد حزب الله، ببعض النواحي، قدرته على الإمساك.

مع ذلك، بالكاد يكون حزب الله وحده في هذا الصدد. إذ قصَّر عدد من الفاعلين الحكوميين كثيراً بما يتعلق بالمعايير الغربية للكفاءة العسكرية، سواء في عالم اليوم أو تاريخياً. فالحرس الجمهوري للدولة العراقية، "نخبة" صدام حسين، على سبيل المثال، أثبت عجزاً منهجياً بما يتعلق بدمج الحركة والدعم الناري غير المباشر، توحيد أذرع القتال المتعددة، التفاعل بمرونة تجاه الظروف المتغيرة، أو ضرب أهداف بثبات وإتساق بعيارات صغيرة *أو* كبيرة؛ ففي حربين مع الولايات المتحدة، كان إستخدام الجيش العراقي للتغطية والإخفاء، تحضير المواقع القتالية، والعرض الناري "أقل" كفاءة بكثير، وبشكل ثابت، من إستخدام حزب الله لتلك الأمور. وأثبت الجيش الإيطالي في العام 1941 في حرب تقليدية كفاءة أقل بكثير من الذي قام حزب الله في العام 2006؛ كانت الدفاعات الفرنسية على جبهة " سيدان" الحساسة في العام 1940 أكثر إنكشافاً، ولم تكن قادرةعلى التفاعل مع الظروف المتغيرة أكثر من تفاعل حزب الله. وأثبت الجيش المصري، وبشكل منهجي، بأنه أقل حذاقة وبراعة من حزب الله في التغطية والإخفاء، وبأنه أفضل قليلاً من حزب الله في تنسيق المناورات الكبيرة مع أذرع قتالية موحدة أو الرد بمرونة على الظروف المتغيرة في عام 1956 أو 1967؛ أما الجيش السوري فلم يقم بما هو أفضل في العام 1967، 1973، أو 1982. بالواقع لقد تسبب حزب الله في العام 2006 بسقوط ضحايا إسرائيليين مقابل كل مقاتل عربي أكثر مما فعلته أية دولة معادية لإسرائيل في الحروب العربية – الإسرائيلية المتبادلة

في الأعوام 1956، 1967، 1973، أو 1982. وكانت مهارات حزب الله في القتال الحربي التقليدي في العام 2006 تشوبها العيوب بشكل واضح – لكنه كان جيداً أيضاً ضمن الحدود الملحوظة لفاعلين حكوميين آخرين في الشرق الأوسط وأماكن أخرى، ومتفوقاً بشكل بارز وهام بالنسبة لعدد من هذه الدول.

بالإجمال، لم يتطابق سلوك حزب الله في العام 2006 لا شكلاً ولا مضموناً مع النموذج المثالي لحرب "العصابات" ولا مع أي من الحروب "التقليدية"، إلا أن مقاربته وكفاءته، مع ذلك، تضعه بشكل جيد ضمن عصبة ميَّزت عدداً من جيوش الدول السابقة في صراعات متبادلة بين الدول.

في كل الأحوال، يعرض هذا الأمر تحديات خطيرة بالنسبة لصناع السياسة الأميركيين في ضوء التأزم بين تعقيدات حملة لبنان 2006 ومتطلبات العراق وأفغانستان. فالعمليات الجارية في العراق و أفغانستان تتطلب قدرة قصوى لإلحاق الهزيمة بالأعداء الحاليين الذين يمارسون تقارباً وثيقاً مع حرب عصابات كلاسيكية؛ إذ يعرض لبنان إمكانية بالنسبة لأعداء مستقبليين الذين بإمكانهم شن حرب أكثر تقليدية من هذه. وبذلك فإن المتطلبات المختلفة لهذه النماذج المختلفة من القتال تترك مخططي الدفاع في مأزق محيِّر: لا يمكن للولايات المتحدة توسيع إحتمالاتها لكليهما في آن معاً، لكن لا يمكنها تجاهل أي من الإحتمالين بأمان، ما يتطلب خياراً مؤلماً يجب التضحية فيه بشيئ هام مهما كان الخيار الذي يأخذه المرء.

بالمقابل، يرى عدد من الناس في جدل الحرب المستقبلية اليوم صورة أبسط وأقل تصارعاً. إذ هناك جدل واسع بأن المستقبل هو أحد المعادين غير الحكوميين الذي سيستخدم أساليب لا متماثلة وغير نظامية تشبه كثيراً أساليب المتمردين العراقيين أو الأفغان اليوم. وإذا كان الأمر كذلك، عندها ليس هناك من خطورة كبيرة ذات معنى، أو ليس هناك من خطورة حقيقية، في تحويل الجيش الأميركي بإتجاه ضرورات حد الطيف السلوكي العصاباتي. على العكس، هذا سيحسن، بشكل لا لبس فيه، الأمن القومي الأميركي عن طريق إعادة تشكيل شكل الجيش لتلبية حاجات المستقبل الحقيقية، وأخيراً التخلص من الأعراف والأنظمة البالية الموروثة لقوة حرب باردة أعاق قصورها البيروقراطي التغيير الضروري الى الآن. وإذا كان المستقبل حقاً هو شن أحد الفاعلين غير الحكوميين نسخة عصر معلومات لحرب عصابات كلاسيكية، عندها فإن تحدي التخطيط الدفاعي لليوم والغد مسألة متطلبة مرهقة لكنها مسألة واضحة فكرياً لجهة الدفع بشدة للحصول على بيروقراطية مقاومة للقيام بالشيئ الصحيح وتقبل التحول لحرب غير نظامية، قدر الإمكان، لبلعه.

في كل الأحوال، إن تجربة لبنان تعرض مستقبلاً أقل وضوحاً وأكثر إختلافاً وتنوعاً. فلبنان في العام 2006 يرينا مثالاً صلباً عن فاعل غير حكومي كان سلوكه العسكري بعيداً عن نموذج العصابات الكلاسيكي المُشاهد في العراق وأفغانستان اليوم. كما من غير المرجح أن يكون حزب الله في العام 2006 الأخير في هذه النماذج - برغم أن دراسة متأنية لسلسلة من السلوك العسكري اللا حكومي تتخطى نطاق هذه الدراسة (المونوغراف) فإن هناك سبباً للإعتقاد بأن هناك تجربة مشابهة لوحظت في العقود الأخيرة في صراعات كالشيشان، سلوفينيا، البوسنة، كرواتيا، راوندا، وفي أعمال مثل "باي بيشي" أو وادي "شاهي كوت" في أفغانستان في عامي 2001-2002. لا يمكن، حتى الآن، معرفة مدى إتساع هذا التوجه، ماهية أسباب جذوره، أو الى أي مدى سيذهب – وللإجابة على هذه التساؤلات هناك حاجة لبحث حساس بالنسبة للمجتمع الفكري الدفاعي. إلا أن حزب الله يبرهن فعلاً، وبشكل لا لبس فيه، بأن الفاعلين غير الحكوميين اليوم غير محدودين بأساليب عسكرية على نموذج رجال العصابات كما هو مفترض غالباً في جدل الحرب المستقبلية.

وهذا يعني بأن تحدي التخطيط الدفاعي هو أكثر تعقيداً من الذي يتضمنه غالباً الجدل الحالي الدائر. فهناك مخاطر حقيقية في التغيير بشكل ضئيل جداً و كذلك في التغيير بشكل كبيرجداً. ولتجنب الفشل في العراق أو أفغانستان فإن ذلك قد يتطلب تضحية حقيقية في تلبية تحديات مستقبلية في مكان آخر، الأمر الذي لا يمكن تجنبه بتجاهل التهديدات التقليدية أو بالإصرار على التوازن. إن المقايضات حقيقية، وليست مصطنعة، والمآزق التي تخلقها لا يمكن تفاديها.

هذا بالتأكيد لا يعني بأن على الولايات المتحدة العودة الى التركيز المعوِّق على حرب كبرى كما فعلت قبل العام 2003 – أو بأن على تهديد حزب الله أن يحل مكان تهديد الجيش الأحمر في الـ " فولدا غاب" من حيث التركيز على تخطيط الدفاع الأميركي. لقد كان الجيش الأميركي ما قبل 2003 ، وبشكل خطير، مُستثمِراً أقل من المطلوب في مجال قدراته لمكافحة أساليب رجال العصابات من النوع الذي واجهناه، بشكل متزايد، بدءاً من العام 2004. وسيكون من الخطير وغير الحكيم العودة الى تركيز ما قبل 2003 وتقبُّل درجة عدم الجهوزية في مكافحة أساليب رجال العصابات الذي أنتجه هذا التركيز.

كما أن هذا التحليل لا يتضمن وجوب قبولنا الفشل في العراق أو أفغانستان لأجل إعادة موازنة الجيش تجاه أعداء تقليديين أكثر من الذين نواجههم هناك، إن الفشل في العراق أو أفغانستان يمكن أن يكون له نتائج خطيرة للغاية بالنسبة للمصالح القومية الأميركية.

ولحين جعل هذه التهديدات مستقرة - أو إذا أصبح الإستقرار متعذر التطبيق- فإنه سيكون من الحيوي زيادة الأداء الأميركي في هذه الحروب الجارية الى أقصى حد حتى ولو كان هذا يقلل من الإمكانية المستقبلية لحرب ما غير منظورة حتى الآن في مكان آخر.

في كل الأحوال، إن ما يمكن لتحليل لبنان، المذكور آنفاً، أن يفعله هو إظهار حدود بعض التحليلات البارزة لحرب مستقبلية والإضاءة على المآزق الحقيقية المرتبطة بعملية صنع قرار السياسة الدفاعية. إن المستقبل ليس، ببساطة، أحد الحروب على شاكلة حرب العصابات يقوم بها فاعلون غير حكوميين. وهذا يعني بأن تحولاً شاملاً يناسب متطلبات حرب كهذه له مخاطر ومهالك حقيقية وواقعية بالإضافة الى الفوائد والمكاسب. قد تكون السياسة الصحيحة لا تزال تحويل تركيز الجيش الأميركي بإتجاه حرب عصابات، خاصة بما يتصل بتجنب الجيش الجذري ما قبل عام 2003 لهذه المشكلة. قد يكون صحيحاً حتى القيام بتحول جذري نحو الكفاءة في مكافحة رجال العصابات إذا ما كان هذا الأمر الطريقة الوحيدة لتجنب الهزيمة في حروب كهذه. أو قد لا يكون كذلك: إن تحليلاً عن لبنان وحده لا يمكن أن يؤسس للقدْر الذي تكون فيه القدرة على مكافحة رجال العصابات كافية. لكن لصنع هذا القرار، فإن ذلك يتطلب فهماً عالياً لأثمان – وكذلك مكاسب – كل الخيارات. إن عملية إعادة إجراءات حقيقية تزيد من فعالية الجيش لحرب عصابات كلاسيكية ستحتم أثماناً حقيقية في عالم قد يصبح فيه أعداء على شاكلة حزب الله أكثر شيوعاً مع الوقت. ليس هناك من مهرب من هذه المقايضة بواسطة عرض بسيط لتهديد مستقبلي ضخم، والمرء ليس بحاجة بالضرورة لأن يكون معوِّقاً بيروقراطيا كي يقلق من أعداء غير رجال العصابات. إن ما يظهره حزب الله في 2006 هو أنه في التخطيط الدفاعي، كما في الإقتصاد، ليس هناك من شيئ كهذا مجاني كما أنه ليس هناك سياسة خالية من المخاطر ولا لبس فيها. إن عالم الواقع هو أحد المقايضات، وكل الخيارات لها منحدرات وجوانب غير ملائمة – حتى الخيارات التي تبدو فكراً أكثر تقدماً.